المحاضرة الثالثة في مقياس: المصطلحية

عنوان المحاضرة: الجهود العربية القديمة في المصطلحية

المصطلح في القرآن والسنّة:

المصطلح لفظ معروف منذ القديم، ذكره العرب القدامى واعتنوا به في مؤلفاتهم، بل وخصّصوا له كتبا ومعاجم خاصة، بينما علم المصطلح هو الجديد والحديث من حيث الظهور.

وقد شرحت المعاجم القديمة المصطلح تحت الجذر (ص ل ح)، إذ لم يرد في القرآن والحديث النبوي هذا اللفظ، بل وردت مشتقات الجذر (ص ل ح) فقط في القرآن الكريم، وأما في الحديث النبوي فنجد الفعل (اصطلح) في بعض الأحاديث، مثل: "اصطلحنا نحن وأهل مكة" أو "يصطلح الناس على رجل"، وأما كلمة (مصطلح) فلم ترد أبدا لا في القرآن ولا في السنة النبوية، ولا في أمهات الكتب اللغوية، ذلك لأن اللغويين القدامى تعاملوا مع المصطلح على اعتبار أنه كلمة علمية لها وضع خاص في مجال علمي أو فنّي محدّد دون الخوض في حدودها التعريفية، لأن العلم المخصص لها لم يظهر للوجود بعد. إن تعامل اللغويين العرب الأقدمين مع المصطلح والمصطلحية كان ممارسةً وتدوينا وشرحاً ولم يكن تأسيسا و تنظيراً.

المصطلح في المؤلفات التراثية:

لقد اتفقت المعاجم اللغوية وأمهات المصادر اللغوية العربية على تخصيص دلالة الفعل (اصطلح) ومشتقاته لمفهوم (الاتفاق بين الجماعة ما على أمر ما)، ومن ذلك نجد ما أورده الجاحظ على سبيل المثال في مؤلفاته عند حديثه عن فئة المتكلّمين، ونجد مثله علماء آخرين خصّصوا لكتبهم عناوين من باب: اصطلاح النحويين، أو اصطلاح اللغويين.

بل إن منهم من ناقش المصطلحات العلمية وجمعها وفسّرها دون أن يتعرّض لتسميتها باللفظ المعهود (مصطلح أو اصطلاح) بل تناولها معتبرا إياها (كلمة) فقط لا أكثر ولا أقلّ.

من ذلك ما نجده عند الرازي أحمد بن حمدان في القرن الهجري الرابع في كتابه: الزينة في الكلمات الإسلامية، وهناك من اللغويين القدامى اعتبر المصطلح العلمي مجرد (لفظ) لا أكثر ولا أقلّ، من أمثال هؤلاء: علي بن يوسف الآمدي في كتابه "المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلّمين".

واستمرّ الوضع على ما هو عليه في التعامل مع المصطلح، حتى القرن الثاني عشر للهجرة حيث يظهر لنا كتاب : كشّاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، ومن قبله في القرون السابقة له كتب : مفاتيح العلوم للخوارزمي، وقد قصد بتلك المفاتيح المصطلحاتِ العلمية من شتى أبواب العلوم والفنون جمعها وصنّفها وشرحها، وكذلك فعل التهانوي من بعده، حتى أصبح كتابه من أشهر المؤلفات في العهد القديم التي جمعت المصطلحات وعنت بها وأولتها اهتماما خاصّا، ولكن تحت مسمّى: اصطلاحات لا تحت اعتبار أنها مصطلحات.

<u>المصطلح من العصر الأموي إلى العصر العباسي:</u>

بدأت بوادر الاهتمام بالمصطلحية تظهر في العصر الأموي مع بروز حركة الترجمة منذ عهد الخليفة الأموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت 85 ه) يقول عنه ابن النديم في الفهرست: (خطرت بباله الصنعة أي الترجمة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممّن تفصّحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني واللسان القبطي إلى العربية ، وكان هذا أوّل نقل في الإسلام من لغة إلى لغة.)

وفي زمن الخليفة مروان بن الحكم تمّت ترجمة أوّل كتاب في الطب إلى اللغة العربية، وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بنشر هذا الكتاب، كما أمر الحجّاج بن يوسف الثقفي بنقل الديوان في العراق من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، وفي أيام الخليفة عبد الملك بن مروان نُقل الديوان في الشام من الرومية إلى العربية.

ثم جاء العصر العباسي فازدادت العناية بالترجمة ونقل المصطلحات العلمية وتعريفها في المنطقة العربية، بعد أن كانت تلك العلوم مجهولة تماما عند المسلمين،وما شجّع هذه الحركة العلمية شغف الخلفاء آنذاك بها من أمثال الخليفة المنصور وهارون الرشيد المأمون وغيرهما، ومن أمثلة ذلك ما يسوقه التاريخ عن الخليفة هارون الرشيد أنه وسّع ديوان الترجمة الذي أنشأنه الخليفة

المنصور لنقل العلوم، وكان للخليفة المأمون اليد الطولى في تنظيم مسار حركة الترجمة والعناية بالمصطلحات الأعجمية من حيث تنظيمها بجعلها نشاطا رسميا ووظيفة يزاولها الناس لكسب قوت عيشهم، إذ يُذكر على سبيل التمثيل أنه كان معجبا بإسحاق بن حنين فأعطاه وزن كتبه ذهبا، وممّا يُذكر أيضا أنه أنشأ بيت الحكمة في بغداد للعناية بالمنتجات الفكرية العربية والمترجمة، وهو مجمع علمي ومرصد فلكي ومكتبة عامة أقام فيها طائفة من المترجمين وأجرى عليهم أرزاقهم من بيت المال، وهذا كلّه يدخل في دائرة العناية بالمصطلحات ولكن دون التركيز عليها ومنحها العناية اللائقة، لأنّ توجهه العلمي والفكري كان منصبّا على تطوير العلوم وازدهار الحركة العلمية عبر ربوع الحضارة الإسلامية.

وقد استدعت ترجمة علوم الأمم الأخرى إلى العربية كالطب والفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء إيجاد مصطلحات علمية كثيرة للدلالة على المفاهيم المستحدثة آنذاك، وهي كثيرة جدا، يفوق عددها الآلاف المؤلّفة.

إن ترجمة وظهور تلك المصطلحات الغريبة عن البيئة العربية كان عملا فرديا، لم تُسهم في إنتاجه لا مجامع لغوية و لا معاجم متخصصة ولا دوائر معارف ولا مكاتب تعريب تعمل تحت إشراف الدولة، بل كان يكفي للعالم اللغوي أو المتخصص أن يأتي بمصطلحات جديدة في مجال تخصصه حتى تُعتمد ويُعترف بها، لأن السليقة اللغوية كانت هي المحكّ في ذلك، وهي البرهان على صدقه أو خطئه. كان ثمة ترابط وتلاحم بين الترجمة وإيجاد المصطلحات الجديدة؛ وذلك بأن الترجمة تقتضي الرمز اللغوي الدقيق للدلالة على المفاهيم الجديدة، والجملة الصحيحة التي تُساعد على الشرح وإيضاح تعريف المفهوم تعريفا علميا صريحا، فإذا ما تيسّر لهم ذلك عمدوا لإنتاج المصطلحات بكلّ يسر وسهولة.

وهذه بالتأكيد مخالف لما تعتمده المصطلحية الحديثة القائمة على الاتفاق بين أهل الاختصاص اللغوي في المجامع والهيئات اللغوية المختصة.

فكيف كان يتمّ إنتاج المصطلحات الجديدة في العصر العباسي وما تلاه من عصور؟

يجيبنا عن هذا التساؤل مصطفى الشهابي وهو أحد أبرز روّاد المصطلحية الحديثة في سوريا، بأن إنتاج المصطلح قديما كان يخضع لسلسة من الإجراءات العلمية، من بينها ما يلي:

- اختيار المعنى اللغوي الأصلي للكلمة العربية وتضمينها المفهوم العلمي الجديد.
- اشتقاق ألفاظ جديدة من أصول عربية أو مُعرّبة للدلالة على المفاهيم العلمية الجديدة.
- ترجمة كلمات أعجمية بمعانيها الدالة على المفاهيم المستحدثة آنذاك.
- تعريب كلمات أعجمية وعدّها صحيحة.

هذا الاهتمام بالترجمة وحركتها ما هو إلا وجه واحد من أوجه الاهتمام بالمصطلحات قديما، يقابله في الطرف الآخر اهتمام العلماء القدامى بالإنتاج المصطلحي في العلوم التراثية الأصيلة مثل علوم اللغة وعلوم القرآن وعلوم الحديث وكلّ ما يرتبط بالحضارة العربية الإسلامية منذ نشأتها، وقد ظهرت نتيجة لذلك مصطلحات كثيرة في شتى أصناف العلوم والفنون.

<u>واقع المصطلح منذ القرن التاسع عشر:</u>

غير أن تلك الحالة من الإنتاج المصطلحي الغزير القائم أساسا على حركة العلوم والترجمة والجهود الفردية في المصطلح لم تدم طويلا، إذ حلّت بالأمة العربية فترة ركود وسبات وضعف في شتى المجالات الفكرية والأدبية والعلمية والفنية، بدءا من القرن الهجري ال13، ويقابله القرن الميلادي ال19، هذه الفترة ولّدت أطماعا استعمارية لدى الدول الأوروبية، بل إن الثقافة العربية تسرّبت إلى الغرب عبر منافذ كثيرة، من أبرزها الحروب الصليبية وسقوط الأندلس، فأخذت الترجمة تسير باتجاه معاكس من العرب نحو الغرب، فظهرت باللغات الأوروبية مئات بل آلاف المصطلحات العربية التي ما تزال مستخدمة لديهم إلى يومنا هذا ولكنهم نسبوها لحضاراتهم وأنكروا أصلها العربي.

ثم عاشت بعد ذلك الأمة العربية فترة النهضة، ومن أهمّ ما ميّزها حملة نابليون بونابرت على مصر حيث تأسّس مجمع لغوي علمي فرنسي، بالإضافة إلى جهود الفرنسيين في مجال الصحافة والطباعة، وأعقبت ذلك كلّه فترة حكم محمد علي باشا، فظهرت مدارس علمية متخصصة مثل: مدرسة العلوم العسكرية، ومدرسة الطب البشري، وأخرى للطب البيطري، ومدارس للهندسة والزراعة والفنون

والترجمة والإدارة، وكان التدريس فيها باللغة العربية، مما أوجد العديد من المصطلحات العربية الجديدة المبتكرة، وظل الأمر كذلك إلى غاية الاحتلال البريطاني العام 1882م، حيث تحوّل التعليم إلى اللغة الانجليزية.

وُضعت المصطلحات آنذاك اعتمادا على المؤلفات العلمية القديمة لدى العرب ومن جاورهم من الأمم التي احتكوا بها، ولا يعني هذا أن جميع تلك المصطلحات كانت صحيحة ودقيقة وتعكس فكرة الرمز الواحد للمفهوم الواحد في المجال الواحد، بل إنها تعدّ اجتهادات محمودة، بل إن البعض أوجد مصطلحات بديلة لمصطلحات القدامى.

<u>واقع المصطلح في القرن العشرين:</u>

بعيدا عن مصر وتحديدا في بلاد الشام، ظهرت الكليّة الأمريكية في بيروت حيث كان التدريس باللغة العربية قبل أن يتحوّل للغة الانجليزية، وفي سوريا تأسّست كليّة الطب بدمشق أواخر العام 1919م، وكانت تُشكّل قفزة نوعية في مجال التدريس بالعربية وبالتالي في مجال توليد مصطلحات عربية دقيقة وغزيرة، كمّا ونوعا.

في بلاد المغرب العربي لم يترك المستعمر الفرنسي مجالا لانتشار المصطلحات العربية، بل سعى لطمس كل معالم الهوية العربية، مع أن المصطلحية كانت قد برزت للوجود كعلم مستقلّ جديد منذ 1930 م، غير أنّنا نجد بعض المحاولات للنهوض بالمصطلحات العربية في المغرب العربي الكبير مثلما كانت عليه الحال في جامعة الزيتونة بتونس.

وأما بالجزائر فقد تبوّأت اللغة العربية مكانتها العلمية بعد الاستقلال عام 1962م ولكن بكل محدود ومحتشم، إذ نقرأ في الميثاق الوطني آنذاك: "أن الخيار بين اللغة الوطنية واللغة الأجنبية أمر غير وارد البتّة، ولا رجعة في ذلك، ولا يمكن أن يجري نقاش حول التعريب بعد الآن إلا فيما يتعلق بالمحتوى والوسائل والمناهج والمراحل."

في ليبيا ظل التعليم باللغة الأجنبية مقررا بالجامعة بعد الاستقلال، شأنها في ذلك شأن كثير من البلاد العربية مثل الجزائر، وقد استحدثت الجماهيرية الليبية عدة مؤسسات للنهوض باللغة العربية وخدمة مصطلحاتها، مثل: معهد الإنماء العربي، بينما نحت الجمهورية العراقية منحى تعريبيا منذ العام 1976 م، وأنشأت لأجل

ذلك هيئات كثيرة مثل: مركز التعريب التابع لوزارة التعليم العالي والبحث العلمي، واللجان الجامعية للتعريب، وأصدرت قانونا للمحافظة على اللغة العربية العام 1977م.

والحال نفسها يمكن سحبها على باقي الدول العربية مثل الكويت والسودان والسعودية والأردنّ، ولكن تعريب التعليم الجامعي وتشجيع حركة التعريب والترجمة الفعالة لا يؤدي خدمة واضحة المعالم للمصطلحية العربية، لا على صعيد نظرية المصطلح، ولا على صعيد المصطلحية التطبيقية الخاصة.

المصطلح والمصطلحية بين العرب والغرب:

هذا النشاط المصطلحي لا يوزن بشيء إذا تمّت مقارنته بالنهضة المصطلحية التي كانت تعيشها أوروبا ومعظم الدول الغربية في تلك الفترة من التاريخ، مع أن العرب امتلكوا مخزونا مصطلحيا لا يُستهان به، ولكنهم بالمقابل لم يؤسسوا العلم اللائق بذلك الزخم المصطلحي، ولم يسعوا لاحتضانه بعد ظهوره في العالم الغربي، بل تعاملوا مع المصطلحات تعاملَهم مع الكلمات العامّة شرحا وتعريفا وتخزينا بالمعاجم اللغوية العامّة، ولما تأسّست المجامع اللغوية بدءا من مطلع القرن العشرين للميلاد لم تُوجِّه عنايتها للمصطلحات ولم تحتكّ بالدول الأخرى للاستفادة من تجاربها المصطلحية، فقد كانت المصطلحات بذلك تقع بين أيدي غير المتخصصّين من أهل اللغة والعلوم، لذلك لم يتمّ التفكير مبكّرا في شأن المصطلحية كعلم جديد أثبت فعاليته في مجالات عديدة كالاقتصاد والسياسة.

يمكن القول إن العرب القدامى عرفوا المصطلحات فجمعوها ودرسوها دون أن يؤسسوا للمصطلحية كعلم مستقلّ من علوم اللغة، فكانت ممارساتهم تطبيقية لا تنظيرية، وإن العرب المحدثين في مطلع القرن العشرين وما قبله بقليل ساروا على المنهج ذاته، فلم يعنوا بالمصطلحية رغم ظهورها عند الغرب، ولم يتعاملوا مع المصطلحات تعاملا علميا يليق بها، بل هي عندهم كلمات علمية أو تقنية لا تتعدّى حدود دراستها المنفعة اللغوية.

إن الناظر إلى حال المصطلحية في تلك الفترة الزمنية الممتدة منذ العهد الأموي إلى الثلث الأول من القرن العشرين للميلاد سيكتشف أن اللغة العربية لم تكن مُقصّرة

مع أبنائها، ولم تبخل عليهم بتحديد مصطلحاتها، سواء على مستوى توليد الرموز وترجمتها من لغات أخرى، أو على مستوى تحديد طبيعة المفاهيم وشرحها للعاملين في حقول الاختصاص، فلا هي قصّرت في استيعاب العلوم ولا أحجمت عن مدّ يد العون للمشتغلين في رياضها، ولكن العامل البشري المتقاعس هو الذي أسهم بشكل ملحوظ في تراخي عجلة المصطلحية، إذ لم يستوعب العلم من جهة ولم يولِه حقّه من الاهتمام والعناية من جهة أخرى ولم يمنح الفروق بين المصطلحات والكلمات العامّة حقّها من الدراسة، ولم يربط بين فروع هذا العلم الجديد (المصطلحية) وبين الاقتصاد والسياسة والحضارة والمدنية، فأبقاه حبيسا في مختبرات اللغة ونأى به عن المساهمة في النهوض بأوطانه العربية.